الشاعر المؤدب

تاغور الهندي ومدرسته

دهش الغربيون كثيراً حينما اهدى المجمع العلمي الكبير جائزة الشرف الاولى في عالم الادب للعالم الهندي رابندرانات تاغور الشاعر المشهور وذلك لظهور اسمهِ فجأة في عالم الادب ولاعتقادهم ان الشرق عاجز عن ابراز امثال هؤلاء النوابغ. وقد وقفت في احدى المجلات الاميركية على مقالة يصف فيها الكاتب مدرسة لهذا الشاعر جمعت في ادارتها ونهجها الاساليب الغربية والشرقية في التهذيب والتثقيف فرأيت باثباتها اذاعة لفضل الشرقيين وحثا لنا على السير في ميدان العلم والادب

من عهد بعيد قبلما انسحب تاغور من ميدان السياسة شعر بوجوب انقلاب كبير في حالة البلاد التهذيبية — انقلاب يتطلب تضحية عامة وحياة مقدسة لبث روح نشيطة في نشء الامة. فوجد بعد الدرس الطويل والتنقيب الكثير انهُ اذا كان ثمت من دواء شاف لامراض بلادهِ فالدواء هو التهذيب المملوء بالحرية وبالمحبة التهذيب الذي يقوي العقل والادراك ويرقي الآداب وينمي في المرء شخصية كبيرة ذات مبادىء سامية وافكار راقية. وقد ضرب طرق التعليم المنتشرة في بلادهِ بقول لهُ مشهور وهو « ان الطريقة التي تدرس فيها ناشئتنا الجديدة مبادىء القراءة والعلوم هي حمل ثقيل على عقولهم البريئة من كل ذنب وعذاب مبرّح. فالواجب ان لا نجعل اساليبنا التهذيبية تعاكس غاية العلم الرئيسية بل علينا ان نسعى لجعلها بسيطة طبيعية بقدر الامكان »

وتحقيقاً لهذه الامانى اسس مدرسة في بلبور مبتدئاً باربعة طلبة وكان قبل انشائها بوقت قصير قد وزع منشوراً على قومهِ يشير فيهِ الى الغاية من تأسيسها قال :

« احياء لروح التهذيب القديمة في البلاد قد صممت على تأسيس مدرسة يشعر فيها الطلبة بان هنالك شيئاً اسمى وارقى من التفوق في العلوم والفنون الا وهو معرفتنا معرفة جيدة للدنيا التي نعيش فيها اعني بذلك نفي كل وسائل اللذة والترف الموجودين في المدارس الحاضرة وتنشئة الطلبة على المعيشة البسيطة الصحيحة. فلهذا لا يوجد في مدرستي مقاعد يجلس عليها الطلبة بل حصر مفروشة

تحت الاشجار فيعيشون عيشة بسيطة جداً. والغرض الرئيسي من اقامة مدرستي هذه في سهل واسع كبير هو عزلها عن حياة المدن المميتة فاري الاولاد يمرحون مع النباتات والاشجار بينما يحصرون في المدن ضمن جدران جامدة تخنق طبيعتهم الحية النشيطة . ولا يفهم من هذا اني اتقبل دائماً احسن الاولاد عقلاً وارهفهم ادراكاً بل كثيراً ما يرسل لي اولاد ضعيفو الادراك يكون والدوهم قد عجزوا عن تربيتهم وتأديبهم »

اما نهج المدرسة اليومي فيختلف كثيراً عن كثير من مدارس العلم فينهض الطلبة والاساتذة من نومهم في الساعة الرابعة ونصف صباحاً فيرتبون امرتهم ويخرجون مرنمين ترانيم جميلة في مدح خالق العالم . وبعد ان يستحموا ويلبسوا اردیتهم الحريرية البيضاء يجلسون للصلاة والتأمل والتفكير ثم يتناولون طعام الصباح وهو مؤلف من ارز وحليب او طعام آخر خفيف وبعد ذلك تبتدىء الصفوف الساعة ٧ فيحضر كل طالب حصيرتهُ الصغيرة وينشرها تحت الشجرة يتدئون مثاثلهم المتعددة من ادب وتاريخ وجغرافيا بلا كتب الا اذا كانت تطلب تمارين عملية كالطبيعيات والكيمياء فيعمدون الى غرفها. وتلقن لهم المثائل شفاهاً اما عدد الطلبة في الصف الواحد فلا يتجاوز العشرة وكثيراً ما يصرف الاستاذ كل الوقت على طالب واحد

ونحو الساعة العاشرة ونصف اي بعد درس ثلاث ساعات متواصلة يتفرق الطلبة والاساتذة وهم ينشدون الاناشيد المختلفة الاغتسال والاستحمام وهناك يبقون يرعون الى الساعة ١١ ثم يتناولون الغداء يذهبون الى المكتبة المطالعة والدرس او يصرفون الوقت كما يريدون . وفي الساعة الثانية بعد الظهر يجتمعون مرة ثانية تحت الاشجار للدرس ولا يسمح للاستاذ ان يضربهم او يشتمهم مهما كانت جرائمهم وذنوبهم وتنتهي مثائل النهار عند الساعة الرابعة بعد الظهر فيتناولون طعاماً خفيفاً وبعده يندفعون بكليتهم الى الالعاب المختلفة كالفوت بول والكريكت والتنس وغيرها من الالعاب المشهورة . ففي الالعاب الرياضية العسكرية والدروس المفيدة نال هؤلاء الطلبة قصب السبق على كثير من المدارس في البلاد. ولتعويدهم الهواء البارد والحار يجبرون على الركض عدة اميال في الايام الحارة والباردة ويعرضون اجسامهم للمطر المنهمر وفي كثير من الاوقات يمشون

اكثر من عشرين ميلاً دفعة واحدة ولا يسمح لاحد بان يلبس احذية اوجوارب الا باذن خصوصي من الطبيب

ويزور هؤلاء الطلبة القرى حولهم فيعلمون الهنود الاصليين ديانتهم بطريقة بسيطة ويرشدونهم الى اساليب النظافة والاتقان. وقد اقاموا في كثير من القرى المدارس الليلية لتعليم مبادىء القراءة والعلوم وانشاوا الاكواخ البسيطة للاهالي المعوزين بلا مكافأة او مجازاة

وبعد انتهاء الالعاب يستحم كل واحد منهم ثم يلبس لباسهُ العادي ويصرف نحو نصف ساعة في الصلاة والتأمل والابتهال ويتلو ذلك العشاء ويجب ان يكون من البقول ولا يسمح لاحد ان يشرب الخمر او يأكل اللحم او يفوه بكلام بذيء او يلجأ الى المجادلات الدينية لئلا يعكر السلام السائد في هذه المدرسة الجميلة

ويُعنى تاغور بالموسيقى المختلفة ويحبها محبة شديدة ويعتقد بتأثيرها القوي في التلامذة خلافاً للمتعارف في البلاد ففي المساء تجتمع الصفوف الموسيقية وتغني الاغاني المطربة ويلعب على الآلات المختلفة وتتلى قطع مضحكة وتمثل روايات مناسبة تأليف تاغور نفسهِ وكثيراً ما يشترك معهم في التمثيل . ويحرّر الطلبة جرائدهم وقد امتلأت بالرسوم البديعة والقصائد الجميلة والمقالات المفيدة ويطالعون احسن مجلات اميركا وانكلترا ويرسلون بخلاصتها الى مجلات كلكتا فتنتشر فيها فيفيدون ويستفيدون

اما تاغور فيعيش وحدهُ في بيت خاص . ينهض باكراً مع الطلبة واحياناً قبلهم فيستحم ثم يختلي للتأمل والتفكير ثم يتناول طعام الصباح من ارز مطبوخ وبطاطس ولوبياء وزبدة وهو مولع بالمشي وبزراعة الحدائق ويعظ الطلبة والاساتذة مرتين في الاسبوع ويحب الاولاد محبة تفوق الوصف

يحكى مرة ان احد الاولاد الصغار وعمرهُ ست سنوات كان جالساً على ركبتهِ يلعب بذقنهِ فقال لهُ فجأة يا سيدي انت تنظم القصائد الكثيرة فلم لا تعلمني ان انظم مثلك فاجابهُ بلطف زائد يا ولدي ان حملها متعبٌ جداً وكثيراً ما كنت اشعر انها تكاد تسحقني فلا احب ان اثقلك بها خصوصاً وانت لا تزال صغيراً فاجابهُ الولد حسناً فاسمعني اذاً ان انظم القصائد وحدي وهو الآن ينظم القصائد وينشرها في جرائد المدرسة

ولتمرين الاولاد على الزعامة والحكم الذاتي تترك لهم ادارة شؤون المدرسة الداخلية فكل يوم ثلاثاء ينتخب الطلبة قائداً لاسبوع واحد يكون فيه رئيساً للمدرسة كلها ثم ينتخب كل صف قائداً لهُ فيلاحظ القواد تصرف التلامذة في الصفوف وخارجها ثم يحاكم الطلبة امام محكمة منهم . فيظهر الطلبة المذنبون فيدافعون عن ذنوبهم او يكلفون احد الطلبة المدافعة عنهم فاذا حكمت المحكمة بتجريمهم يطلب منهم ان يختاروا قصاصهم . والقصاص يكون حرمان الطالب من اللعب لعدة ايام او العمل في الحديقة ولا يسمح للمحكمة او القائد او للاساتذة استعمال الكلمات الخشنة لهم فتظل بهذه الواسطة عرى الصداقة متينة بين الاساتذة والتلاميذ

وعلاوة على تقوية عاطفة الدين في الطلبة يصرف الفكر لتقوية قوة التصور والملاحظة فهم يلاحظون بانفسهم نمو الحشرات والاشجار والازهار من حين ظهورها الى حين تمامها يساعدهم بذلك تاغور نفسه بملاحظاته المنشورة في مجلة خاصة به

والزائر لهذه المدرسة يسر كثيراً بالمعيشة المفيدة التي يعيشها هؤلاء الطلبة. فهناك فرقة تتكلم عن الشعر والعلوم . وفرقة عن حشرة من الحشرات او نبات من النباتات. وفرقة منهمكة باطعام العصافير والحيوانات. واخرى بتربية النباتات. فهم كالغزلان يمرحون ويسرحون في بينهم الجديد المملوء بالمحبة والاخوة والحرية

ومع عزلتهم في البرية تراهم واقفين على حركات العلم الادبية والسياسية والاختراعية وتاغور نفسه من المولعين بمطالعة الكتب والمجلات وهو كل شهر يشتري كتباً مفيدة في علم الادب والفلسفة والاقتصاد والسياسة والاجتماع والتاريخ. وبعد ان يقرأها يهديها الى المكتبة فيطالعها الاساتذة والتلامذة ولا يجبر احدٌ من التلامذة على اتباع رأي في علم من العلوم بل تقدم لهم جميع الآراء ولهم الحرية في اختيار اي وجه ارادوا

هذه هي مدرسة تاغور الجميلة وهي مع النقائص الموجودة فيها تجمع حسنات كثيرة تعود بالفضل الكبير على منشئها . فلعلنا نقتبس منها ما يفيد بلادنا ويرقي مدارسنا

بيروت — الكلية الاميركية نجيب ماجم نصار